« فَرُبَّ مَخْمَصةٍ شَرٌّ مِنَ التُّخَم »[1]

وينتقلُ بعد هاتين المقدّمتين إلى مديح الرّسول ﷺ ، فيتحدّث عن زُهْده مع ما عُرِض عليه من كنوز الأرض ، وعن كَمال شمائله واصطفاء الله تعالى له ، وفي هذا المديح تتكرّر المعاني القائمةُ على أساس التّصوُّر الصُّوفيّ للحقيقة المحمّديّة : فهو سيّد الكونين السّماء والأرض ، والثّقَلَيْن : الإنس والجنّ ، والجِنْسين : العرب والعَجَم ، وهو حبيب الله وصاحبُ الشّفاعة يوم الحساب ، ومَرْتَبَتُه أرفعُ من مراتب سائر الأنبياء ، وفضائلُهُ تُعْجِز ألسنةَ الواصفين ، حتى إن اسمه يكاد يحيي الموتى . على أنه بعد ذلك يعود إلى تأكيد بَشَرِيّته حتى لا يُتَوَهَّمَ في عباراته السّابقة ما يَشي بالتّقديس أو العِبادَة :

محمّدٌ سَيِّدُ الكَوْنَيْن والثَّقَلَيْـ ـنِ والفَرِيقَيْنِ من عُرْبٍ ومن عَجَمِ
هُوَ الحبيبُ الذي تُرْجَى شَفَاعَتُهُ لكُلِّ هَوْلٍ من الأهْوَالِ مُقْتَحِم
فاقَ النَّبِيِّينَ في خَلْقٍ وفي خُلُقٍ ولم يُدَانُوهُ في عِلْم ولا كَرَم
فإنَّ فَضْلَ رسولِ اللهِ لَيْسَ لَهُ حَدٌّ فَيُعْرِبَ عنهُ ناطِقٌ بِفَم
لو ناسَبَتْ قَدْرَهُ آياتُهُ عِظَمًا أحْيَا اسْمُهُ حِينَ يُدْعَى دارسَ الرِّمَم

.....

فَمَبْلَغُ العِلْم فيهِ أنَّه بَشَرٌ وأنَّهُ خَيْرُ خَلْقِ اللهِ كُلِّهِم
وكُلُّ آيٍ أتَى الرُّسْلُ الكِرامُ بها فإنّما اتَّصَلَتْ من نُورِهِ بِهِم
فإنَّه شمْسُ فَضْلٍ هُمْ كواكِبُها يُظْهِرْنَ أنْوَارَها للنّاس في الظُّلَم

وفي الفصل الرّابع يتحدّث عن مولده (عليه السّلام) وما صاحَبَهُ من بشائرَ، حتى بدا وكأن الكون كلّه يحتفل بهذا المولد في نشوة وطرَب ، ويذكر من هذه البشائر تَصَدُّعَ إيوان كِسْرى ، وخمودَ نار المَجوس ، وجفاف بُحَيْرة

(١) يُصْمي : مضارع أصْمَى ، يقال أصْمَى الرَّمِيَّة : أنفذ فيها السّهم ، ويَصِم : مضارع وَصَمَ : عاب ، والمَخْمَصَة : الجوع .